على ذكر جبران

معلومات جديدة عن حياته وآثاره

جبران وبرباره — برباره في قبر جبران وفي متحفه — محاولات الكاتب والفنّان — آراؤه في شؤون مختلفة — مرضه ووفاته

بقلم فؤاد افرام البستاني
استاذ الآداب العربية في جامعة القديس يوسف

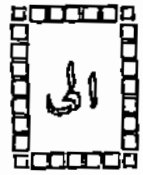

برباره ! الى برباره !

كثيرًا ما قرأ روّاد متحف جبران في بشري هذا التعبير باللغة الانكليزية يوقّع به المصوّر النابغة بعض رسومه الرصاصية والفحمية، فيرفعها هدية « الى برباره ». وكان الاختصاصيون بالشؤون الجبرانية يعرفون ان السيدة بربارة يونغ، من كبار الاديبات الاميركانيّات، عرفت جبران في آخر سنيه، واهتمّت، بعد وفاته، بتركته الادبية والفنية. بيد ان جمهور المعجبين بالشاعر الفنّان، الثُّرّ على جمع اخباره وذكرياته، ما كانوا ليتمثلوا هذه الاميركية الّا شخصيّة غامضة لا تكاد تخرج من ضباب الأبعاد النيويوركية الّا لتلتحق بسرب اولئك السيدات مشجّعات الادب والفنّ، بل الادباء والفنّانين، من اللواتي تتردّد اسماؤهن دون ان تدلّ على حقيقتها تلك الشخصيّات الجذّابة.

في احد ايام تشرين الاول سنة ١٩٢٣، كانت السيدة بربارة يونغ تشهد حفلة نادرة في كنيسة القديس مرقس الانجيلية الاسقفية في نيويورك. وكان القائم بتلك الحفلة السيد داڤين-پورت بطلر، مدير مسرح غريب من نوعه في العالم؛ هو مسرح مجاني يمرض فيه الممثلون والممثلات اشهر الروايات في حفلات منظّمة

شأن سائر المسارح، ولكن تمتاز بكونها مجانيّة . فلا الادارة تنال شيئاً على تنظيمها، ولا الممثلون ينالون أجراً على اعمالهم. اعلنت هذه الجوقة انّها ستقوم بقراءة مقاطع من « نبيّ » جبران في الكنيسة الاسقفية. وتمّت الحفلة على اكمل وجه بحضور المؤلّف نفسه . وكان من جمهور المعجبين بالمقاطع الملقاة السيدة بربارة — او الست بربارة ، كما تعوّد اهل جبران واصدقاؤه ان يسمّوها في ما بعد . وكما سندعوها جرياً على هذه العادة ! — وهي لا تعرف جبران ولا شيئاً عن جبران

انتهت الحفلة وخرج الناس كلّ بذكرياته وتأثراته . وكان اتجاه الست بربارة الى اول مكتبة تتزوّد منها كتاب « النبي » فتحيي ليلها بقراءته معجبةً متأثرة . حتى اذا اقبل الصباح كان للنبيّ مبشّرة جديدة تندفع في نشر تعاليمه وشرح آرائه بما اعطاها الله من بلاغة حارّة ونبرة جذّابة ، وبما اولاها اهتداؤها الجديد من غيرة وحماسة . واذا بالمحاضرات تثار المحاضرات عن جبران ونبيه ، وبالقراءات بعد القراءات للمقاطع المؤثّرة في المجتمعات الخاصّة والعامّة .

ومرّت اشهر خمسة .

في شهر اذار من السنة ١٩٢٤ ، بعد ان قامت الست بربارة بقراءة آيات من « النبي » في « جمعية النساء » في الكنيسة نفسها ، تقدّمت منها احدى الاوانس واخذت تسألها هل تعرف جبران. فهزّت الخطيبة رأسها متأسفة . وشدّ ما كان استغرابها عندما سمعت من الآنسة المذكورة ان جبران في نيويورك . على انها تردّدت في طلب التعرّف اليه خشية ان تمحو شخصيته الحقيقية تلك الشخصية المثلى التي كوّنتها لها إحساسها الفني وخيالها الشاعر . وكان عراك شديد بين الاكتفاء بالمثل الاعلى الخيالي والفضول الانثوي الدافع الى الاطلاع على الجديد مهما يكن . حتى انتصر الفضول ، طبعاً ، ولكنه اقترن بشيء من الإيجاس والحذر ارضت به الست بربارة خيالها المكتفي بما تمثّله عن جبران . وبعد ان عزمت على مخاطبته بالتلفون ، تجنّبت سماع صوت قد يبدّد ما تصوّرت سماعه من نبرات « النبي » ، فكتبت اليه رسالة إعجاب واحترام ، واخذت تعدّ الساعات مقدرة مدة الذهاب ، مؤمنةً بتسلّم جواب عن تلك الرسالة .

ناحية من نواحي متحف جبران وفيه معرض الرسوم الذي نظمته السّت برباره بعد وفاة الفنّان

صورة العائلة بريشة جبران

وكان الجواب اسرع مما قدرت . وكان شفهيًا حمله سلك التلفون يسأل عن السيدة بربارة يونغ ويدعوها الى محترف جبران ، او يدعو جبران نفسه ، اذا صح التعبير ، الى مكتبها . على انها فضّلت ان تذهب هي فتزور الشاعر الكبير في مهبط وحيه في « ٥١ وست الشارع العاشر ». ولم يكد ينتهي حديث المجاملات حتى اصبحت الست بربارة من اخلص اصدقاء جبران ، واصدق معاونيه ، مدة سبع سنوات متوالية ، يفضي اليها بكل ما يخالج قلبه ، ويطلعها على خفايا حياته الكنيسة ولا سيما في آخرها ، فتحنو عليه حنوّ الامّ العطوف ، وتعجب به إعجاب الاخت الفخور ، وتمتثل اقواله امتثال البنت المطيعة . يستشيرها في المشاكل الاجتماعية ، ويتكل عليها في الشؤون الادبية ، ويرتاح الى تعازيها في أزماته الصحية ، ويراها جنب سريره في المرض الاخير ، وفي تلك الساعات القليلة التي قضاها في المستشفى ؛ حتى اذا فارق هذه الفانية ، اخذت تهتمّ بما تركه من مخطوطات فجهزت للطبع ثلاثة مجلّدات كتبت مقدّمة واحدٍ منها . ورتّبت آثاره الفنية فاظهرتها في معرض تذكاري ، في محترفه الخاص ، فتح ابوابه من كانون الثاني الى نيسان ١٩٣٢ (انظر الرسم) . ثم هيأتها مع آثاث المحترف جميعها حتى شُحنت الى مسقط رأسه . وكم كانت يقظة هذه التذكارات مؤلمة في بشري ، في متحف الفقيد ، وقد رأينا الست بربارة تتنقل وكأنها مخطوفة الحواسّ ، من زاوية الى زاوية ، ومن صورة الى صورة ، من قطعة خشبية الى كرسي ، الى ريشة ، الى رأس تمثال مهشّم ، وتقول : « كان يجلس هنا ، وكان يسند كتابه الى هذا ، وكان يكتب بهذا ، وكان يرسم على هذا . . . » حتى اذا وقعت عيناها على دفتر بين مخطوطات جبران ، صاحت : « هذا خطّي . مقاطع من « يسوع بن الانسان » كان يمليها عليّ . »

❧

كان من نصيبنا ان اجتمعنا عدة ساعات في ثلاث جلسات الى هذه السيدة الراقية ، ورافقناها ، مع الامير موريس شهاب ، والاستاذ داود ازرق ، في رحلة خشوعية الى مسقط رأس جبران ، وقد جاءت لتقضي فيه سنةً كاملة تكتب في اثنائها حياة الفقيد . ولكن حوادث الحرب الحاضرة ، التي باغتتها في عرض

الاوقيانوس اضطرّتها الى الرجوع الى نيويورك ، وارغمتها على ان ترقب بصبر ختام المأساة العالمية الجديدة لعلّ الله يُفسح لها بعض الزمن فتتم ما بدأت به.

بيد ان الابحاث الجبرانية تستفيد الكثير من مرور السيدة يونغ في بلادنا، وان مروراً سريعاً : فهناك صور غير معروفة ، ومخطوطات غير منشورة اسعدنا الحظ بان نطّلع عليها .. وهناك معلومات نفيسة عن حياة جبران العامة والخاصة ، وعن آرائه ومعتقداته ومظاهر روحانيته الغريبة نغتبط بالوقوف عليها بواسطة شاهد عيان ، بل طالب متفهّم معجب باستاذه ، شاء ان يسقط الاسانيد ، فنقل الينا بحذافيرها تلك المحادثات المتتابعة بينه وبين المعلّم الراحل . كانت الست بربارة تنقل هـذه الاحاديث من ذكريات الاعوام المتعاقبة ، وكأنّها حصلت بالأمس ، فتحييها بابتسامها او بكآبتها ، بخشوعها او بمرحها ، وتتمثّل المشاهد العديدة في محترف جبران وفي غيره من المجتمعات النيويوركية ، بينما كانت السيّارة تقطع بنا الخاديد طريق اميون ، او تدور في المصاعد اللولبية المتراكبة من كوسبا الى اعالي الجبل المقدس .

ـــ هذا قاديشا الوادي المقدّس العابق بعطور النسّاك والقديسين

ـــ آه ! قاديشا !

وبرقت عينا الستّ بربارة وهزّت حفيدها[1] ذا السنوات الأربع وهمست في اذنه : « كريستوف ، قاديشا » ، مشيرةً الى الوادي الرهيب . فردّد الطفل الكلمة مرّتين مبتسماً ابتسامة معنوية ، وتابع دون أن يحوّل نظره عن الوادي :

ـــ ومار سركيس ؟ اين مار سركيس ؟

ـــ سنصل اليه عمّا قريب .

هذه مغارة القديسة مارينا . . . وهممنا بالاندفاع في اطلاع الستّ بربارة

---

١) اشارت بعض جرائدنا اليومية الى وصول السيدة يونغ وابحاثها عن جبران ذاكرةً انها اتت بابنها لتعلّمه لغة جبران . ولمّا سألناها عن اسم « ابنها » هذا ، تبسّمت واشارت الى الطفل والى وجهها الصافي على رغم بعض التجعدات : « اني ؟ عمره اربع سنوات وعمري احدى وستون سنة . . . هو كريستوف ابن بنتي . » — ولعلّها اول امرأة تذكر عن عمرها رقماً يتجاوز ما يعتقده المتأمل فيها !

على هذه الاسطورة اللبنانية الجميلة . فهزّت رأسها مؤمنة ، وقالت :

اعرف القصة رواها لي جبران .

وكم كان انفعالها مؤثراً عندما اطلّت بشرّي ، وفوقها وسام الأرز الأكدر على صدر ظهر القضيب ، كما يقول جبران . وما هي ان وضحت الخطوط ، وتقاربت الأبعاد ، حتى بان سنديان مار سركيس يصعد الى ابيضاض الكهف حيث شاء الشاعر ان يستريح من متاعب الدنيا ، وتكالب ابناء الدنيا .

هي طريق صعبة المرتقى تلك التي تؤدّي الى القبر ، شأن كل سبيل يتخذها الانسان لادراك شخصية ذاك الناشم المطمئن . انها تفرض الرغبة الشديدة ، والجلد المتابع ، ان لم تفرض الحبّ البارّ .

ـــ وما رأيكِ لو مُهّدت وعُبّدت فتقدّمت عليها السيّارات .

ـــ لا ! لا ! لا سيّارات ولا ضجّة قرب جبران . قالت هذا واللهثات تقطّع كلماتها . يجب ان يتعب من يودّ الوصول الى جبران .

وما قطعنا الباب الخارجي لمدخل الدير حتى تولّانا الصمت الخاشع ، فتولّانا الهيبة والاحترام ، ناظرين الى الآية اللاتينية المعروضة منذ اجيال : *beata ()* « *solitudo, sola beatitudo* ! » . ولم يكن يتخلّل ذاك الجوّ الرهيب الّا صوت الصفير ، وكأنه غُلّف بشيء من القبطة الكثيبة ، يردّد : مار سركيس ! مار سركيس !

وفي القبر - المعبد ، طلبت ان تُترك وحدها . فخرجنا دقائق حفلت بالمناجاة الصامتة تهزأ بالمكان والزمان :

حسبُ الرفيقين نأيُ الأرض بينهما : هذا عليها ، وهذا تحتها بالي !

❦

في المتحف عرفت كلّ صورة ورسم ، وكلّ قطعة ودفتر . هذه وسادته . وهذا شمعدانه ذو السبع الشموع الذي كان يصوّر على نوره . هذا الحاجز الخشبي المحفور صنعه بيده ، وكذلك هذا المتكأ . وكأن حجاب الرموز الغامض انشقّ امام السيّدة ، فلم تبقَ صورة غامضة في المتحف ولا حركة في الاشخاص لا معنى لها . بين صور الفقيد غير المنشورة رسم ملوّن يمثل شخصين

عاريين متجهين كل الى جهة ، وقد ربطت يداهما برباط وثيق . كان الناس يعجبون بهذه الصورة ولا يعرفون ماذا تمثّل ، شأنهم في اكثر الصور الجبرانية . اما ذوو الاختصاص ، وارباب الادّعاء ، فكانوا يشرحونها متفلسفين بانها صورة الزواج الذي يربط بين الزوجين وان تخالفت نزعاتهما حتى المعاكسة . واما الست برباره فقالت مبتسمة : انها رمز الحزن والفرح المرتبطين ابدًا ، على تعاكسهما ، في حياة الانسان . واذا بالصورة تتخذ امامنا حياةً جديدة . واذا بنا نرى احد الشخصين وقد انتشرت على قسمات وجهه الغبطة الهادئة ، بينما تخدّد جبين الآخر بخطوط الكآبة الاليمة .

هي ساعة عذبة في متحف جبران ، وددنا لو طالت الى ما وراء الساعات والايام والشهور ، فتتمكن هذه السيدة ، وتمكننا ، من فهم رموز الشاعر ، وتصوّرات الفنان . ولا شك ان جبران كان يعبّر عن فكره بالرسم والكتابة على السواء ، كما يظهر من مخطوطاته ومسوّدات رسومه ، وبعضها في متحف بشري ، والبعض الآخر في حقيبة الست برباره وقد اذنت لنا بدرس ما فيها ، فرأينا ان نطلع مريدي جبران ودارسيه على ما لا يتسنى لهم الاطلاع عليه بعد سفر الكاتبة الاميركية .

تحتوي الحقيبة على كثير من الصور الاصلية ، وعلى عدد من النسخ لاصول محفوظة في متحف الميتروبوليتن في نيويورك ، وهو من اعظم متاحف العالم ، او في متحف لندن ، او في مجموعات خاصة . وقد لاحظنا في بعضها ، ولا سيما في المحاولات ، ان الكتابة كثيرًا ما اقترنت بالخطوط ، فاظهرتا ، مجموعتين ، فكرة جبران . وهو اسلوبه في اكثر كتبه . من ذلك صورة جبل شاهق بارز عمّا حوله من العناصر الطبيعية ، مكتنف بكثير من الاضطراب ، وقد كتب على الصورة بالعربية : « اذا ماتت الأرض تحوّلت ماء ، واذا مات الماء تحوّل هواء ، واذا مات الهواء تحوّل نارًا . » وهناك محاولة لرسم المسيح — قد تكون ادّت الى الصورة المنشورة في هذا المقال — وعليها بالعربية : « مملكتي حيث يجتمع اثنان او ثلاثة منكم باسمي بالحب والفرح . »

الرسم والكتابة مقترنتان في نظره لا فرق بينهما في اداء الفكر . وكذلك لا فرق بين ان يؤدّيه بالعربية او بالانكليزية ، وان كانت الانكليزية اسهل سيلًا ، وارفع تعبيرًا ، واضبط دقائق ، واعمق بلاغةً وتأثيرًا ، في رأيه ، وبالنسبة اليه . يشهد بذلك كتاب « النبي » الذي كتبه اربع مرّات بالعربية فلم يرض عنه حتى مزّقه وكتبه دفعةً واحدة بالانكليزية . كما تشهد مخطوطاته وفي صفحاتها العربية كثير من التنقيح والاصلاح ، والتحشية ، وابدال المفردات ، مع بعض الاغلاط والاخطاء . اما الصفحات الانكليزية فصافية سليمة من آثار التنقيح ، على الغالب ، الّا ما يعرض من وضع كلمة موضع اخرى او تقديم تعبير على آخر . وسنعرض مقاطع من مخطوطاته العربية تبرز اسلوبه في الكتابة والتنقيح . اما انه كان يستعين باللغتين معاً في إعداد انجاته فواضح من الاوراق الانكليزية وكل ما رأيناه منها مقاطع من « يسوع ابن الانسان » كتب في رأس صفحة منها بالعربية : « وصف مريم — تصفها احدى جاراتها . » ثم تابع بالانكليزية . وهذه صفحة كاملة بالانكليزية ، على اعلاها بالعربية . « فقال تلميذ : ترى هل انا اكثر من قطرة ندى . . . الخ . الخ . . . »

وممن محفوظات الست برباره الرسمية صورة عبّاس عبد البهاء ، زعيم البهائيين . زار نيويورك سنة ١٩١٢ واجتمع به جبران في الساعة السابعة مساء فتأثر بهيئته الساجية حتى اذا جنه الظلام لم يقوَ على النوم . وظلّ مضطرباً يتململ متأملًا بوجه عبد البهاء الى منتصف الليل ، فقام واخذ يعمل ، مستندًا الى ذاكرته وحدها ، حتى اخرج صورة تلك الهيبة على اتم ما يمكن ، وقدّمها صباح اليوم الثاني الى صاحبها فاعجب كل الإعجاب . وبهذه المناسبة ذكرت الست برباره ان جبران كثيرًا ما كان يصوّر دون أمثلة (modèles) مستندًا الى خياله الخصب ، والى تمارينه العديدة المتتابعة فانه كان من كبار المشتغلين تمريناً ورياضةً في الانشاء والتصوير . ومن محتويات الحقيبة الاميركية صورة امرأة نائمة ، او مائتة ، [illegible] وهي من اوليات صور جبران ، رسمها في بيروت ولم تستقل شخصيته بـ [illegible] عهد شبابه صورة جميلة جدًا تمثل المريمات الثلاث : مريم ام يسوع ، ومريم

المجدلية ، ومريم اخت لعازر ؛ وهي غاية في التأثير الأليم اشتراها احد سكان نيويورك ، وحفظت الست برباره نسخة عنها . وكذلك تحفظ نسخة من « شجرة الحياة » (الاصل في بشري) ، ومن « التجند المتتابع » (الاصل في متحف متروبوليتن في نيويورك) ، ومن رسم « المسيح » الذي زيّن مدخل « يسوع ابن الانسان » ، ومن « العائلة » (الاصل في بشري). وقد نشرنا هاتين الصورتين في مقالنا هـذا . ومن الصعب وصف الصور الباقية في محفظة الست برباره لان الحديث لا يغني عن العيان ، ولعلّ اجملها « رؤوس العميان » ، وصورة شيخ شاعر في نيويورك تجلّت فيها الهيبة الوادعة ، فانسابت الطمأنينة والسلام من خطوطها . وقد شاهد هـذه الصورة الشاعر الاميركي المشهور ادوين ماركهام (Edwin Markham) ، في المعرض الذي اقامته الست برباره بعد وفاة الفنّان ، فكتب عليها بخطّه الكبير الواضح : « هذه الصورة بروحانيتها اجمل الصور التي وقع عليها نظري ، ٩ نيسان ١٩٣٢ . »

وهناك اوراق عديدة متناثرة فيها دروس وتمارين ومحاولات تصويرية يكثر فيها رسم الايدي والأرجل ، والرؤوس ، والاجسام المتداخلة بعضها في بعض ، والعضلات خاصة . ويلاحظ المطالع ان في الفنّان ميلًا الى تمثيل اليد المقفّعة بتقاطيعها الدقيقة . وهناك صورة يد كبيرة اصابعها شديدة الانقباض وفيها الخواتم الضخمة ، وكأنه اراد ان يمثّل بها الشحّ والحرص . وهـذه الاوراق ترقى الى سنين متتابعة . منها ما يتصل بجبران الفتى ؛ ومنها ورقة تحمل ، مطبوعاً ، عنوان فندق في باريس ؛ ومنها ما يرقى الى آخر حياته .

اما المخطوطات التي شاءت السيدة يونغ ان تطلعنا عليها فهي في اربعة دفاتر . خطُّها واضح جليّ في الغالب ، على قسطٍ من الجمال ؛ انما يكثر فيه الحذف ، والتحشية ، والتنقيح ، سواء أكتب بالحبر ام بالقلم الرصاصي . ومما يلاحظ الدارس ان الكاتب يُسرع في تدوين اول ما يخطر على باله من التعابير حتى انه ينسى بعض الحروف ، ولاسيما الألف ، وسط الكلمة ، فيكتب « وحد » بدل « واحد » ، ويكتب « سطان » بدل « سلطان » و « المزكشة » بدل « المزركشة » .

صورة المسيح بريشة حمدان

وقد لا ينتبه ، في سرعته ، لقواعد العروض ، ولا لاصول الإملاء والنحو احياناً . فيكتب الهمزة الواقعة بعد الألف مفتوحةً ابداً دون كرسيّ مهما تكن حركتها : « شاءوا » . ويقول : « ترى ان العقل سطاناً » وقصده « ان العقل سلطان » . وكثيراً ما نصب اسم ليس في « المواكب » في ردود الفتى :

ليس في الغابات عدلاً
ليس في الغابات عزماً
ليس في الغابات علماً
ليس في الغابات موتاً
ليس في الغابات سكرًا

ولكن اصلح ذلك مرة في « ليس في الغابات عزما » فضرب على الألف من « عزماً » . اما الغلطة النحوية في قوله « يدعى السيد الخطر او الوقر » فكأنه اراد تداركها لأنه وضع علامة استفهام فوق « الوقر » .

ويجب القول ان من هذه الدفاتر ما يرقى الى عهد تلمذة جبران . ومهما يكن من أمر فلا يجوز ان يؤاخذ الكاتب بما في مسوداته الاولى من خطأ او سهو . على اننا رأينا وصف هذه الدفاتر الاربعة بشيء من التفصيل لعلّ في بعضها فائدةً لطلّاب المباحث الجبرانية :

١ً دفتر صغير دون جلد . لا شك انه كان من دفاتره المدرسية ، عليه صور تحاريز : « الى رئيس عام » و « الى صديق » والى « بطريرك » وما شاكل من تلك « الصور » و « التراجم » التي كان يتناقلها الطلاب في القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين . أوَليس عجيباً ان تكون اكثر « الصور الانشائية » التي تمرّن عليها جبران من الرسائل الاكليريكية ؟؟؟

٢ً دفتر ثانٍ اكبر من الاول . دون جلد . يحمل على ورقته الاولى : « من دفاتر جبران خليل جبران ت ١ ١٩٠٠ » وتحتها ، على ثلاث مرات ، هذان البيتان :

الا يا مستعير الكتب دعني فان اعارتي للكتب عارُ
وجدت كتابي في الدنيا حبيبي حبيبي لا يُباع ولا يعارُ

والدفتر مجموعة شعرية منتخبة من اقوال ابراهيم بن سهل ، وابن ممتوق ، والشيخ سليم حنا الظاهر . وكلها من الشعر السهل المائع .

وفيه تمارين انشائية من نثر وشعر . اكثرها غير كامل ، حافلة بكثير من الاستعارات والتشابيه . منها هذا المقطع .

« اخذت اليراع وطيرت رائد الافكار فسقطت على جذوع الالفاظ والتقطت اثمارها ورجعت الى اعشاش الطروس وولدت افراخها . تطايرت طيور الافكار في سماء المعاني وسقطت على غصون البراعة وغرّدت الحاظا . ارتفعت اجنحت (كذا) الافكار بحرارة شمس الذكاء الى فضاء المعاني ففاجئتها (كذا) ارياح الارادة الباردة واسقطتها (كذا) على الاقلام شوبوبًا فسال على الطروس مدادًا »

« انا الآن في البيت الذي سكناه من سبعوات (كذا) اعوام جالس على مقعد بقرب طاولة عليها نور يبعث على الورقة التي اخط عليها كلامًا ربما لا تنظره عين ولا تسمعه اذن ويشق كبد الظلمة باسهم نارية ارتجف بردًا لان الشتاء قد اقبل بمز الريح عطفيه ويسحب النسيم اذياله . »

وكلها من انشاء تلميذ على نصيب وافر من الخيال ، والميل الى الكتابة . انما لم تُصقل مواهبه بعد ، ولم يثبت ذوقه الفني .

يلي ذلك محاولات شعرية غير موفقة .

وفي آخر الدفتر هذه الصفحة الجميلة تخطّ تطوّر قليلًا فارتقى ارتقاء الاسلوب الانشائي :

« اشباح تجيء واشباح تروح . خيالات تطوف في فضاء وسيع وأرواح تسير على مراسح المادة وفي مسارح المكونات . افكار تتراوح بين هذه الدنيا وتلك وشعائر تتماثل بين الحب والبغض . نفوس تطلب الانعتاق من اثر المادة ومادة ترزم السيادة على النفوس . قلوب ترى جمالا فتعبده وقلوب لا ترى الجمال ولا تعرفه . وفي هذه الاشباح وهذه الخيالات وهذه الارواح وهذه الافكار وهذه الشعائر وهذه النفوس وهذه المادة وهذه القلوب محبة كانت منذ الازل . ومن وراء كل هذه الاشياء قوة هي الله والله في كل شيء . . »

٣ دفتر عادي قليل الورق ، مجلّد . مكتوب على صفحته الاولى من جهة اليسار : « من دفاتر جبران خليل جبران »

فيه كتابات انكليزية قليلة . ثم محاولات شعرية بالعربية منها :

يا خليلي لو كنت تعلم ما بي ... ما جعلت الحديث (١ عهد التصابي
ذاك حلم دفنته بفؤادي ... وجعلت الاكفان برد الشباب
ما سلوت الحبيب لكن جفاني (٢ ... فاقتنعت (٣ بوحشتي واكتئابي
وبعدت عن الانام وحيداً (٤ ... (وحجبت) (٥ عن العيون مصابي
واتخذت الطروس صحباً فاني ... قد وجدت الطروس خير الصحاب
وجعلت المدام خير دوائي ... واتخذت الندم وجه الكتاب
وافت من الخيال صروحاً ... عاليات (٦ يخرقن صدر (٧ السحاب
وخلقت (٨ من الخيال بلاداً (٩

وبعد هذه المقطوعة بيتان اعدهما ليكتبا تحت رسمه ، على ما يظهر ، وهما بعنوانهما : « تحت رسمي

« هذا خيال فتى يموى الحياة ولا ... يموى الحياة وفي الحالين يكتئب »
«فان بدى (١٠ جامداً والصمت يملكه ... فاتلوا عليه صلاة الحب يضطربُ »

وعلى صفحة اخرى ، دون عنوان :

يا نفس اياك الملال ... ممن تجاهل او جهل
سيري على أمل فلا ... يدني الوصال (١١ سوى الامل

يا نفس قد ابعدتني ... عن لذة (١٢ العيش الهني

---

١) ما جعلت الحديث : كتب فوقها : « ما رجعت لذكر »
٢) لكن جفاني : كتب فوقها : « حتى سلاني »
٣) فاقتنعت : كتب فوقها : « فاكتفيت »
٤) وحيداً : كتب فوقها : « خجولا »
٥) الهلالان في الاصل
٦) كتب فوق هذا الصدر المتقدم : واقت الخيال صرحاً رفيعاً يسامي الى »
٧) يخرقن صدر : كتب تحتها : « يلثمن وجه »
٨) وخلقت : كتب فوقها : « وبرأت »
٩) انتهى . ولا عجز لهذا الشطر
١٠) بدى : كذا في الاصل
١١) الوصال : احاط هذه اللفظة بدائرة وكتب تحتها : « الاماني » ولا يخفى ان هذا الاصلاح يضعضع الوزن
١٢) لذة : وضع فوقها : « سكرة »

فرضيت فيك قسمة (١ وعن الرضا (٢ لن اتني

وبعد هذا المقطع صوّر بالحبر الأسود الصيني شبه جعل بشع ، بارز القرنين ، وتحته تابع القصيدة :

يا قس لو كان النوى يثني النفوس عن الهوى
لتشوش الشرع الذي نثر الكواكب في الفضا
يا قس لو كان البعاد

ثم شطب هذا الشطر

وفي الدفتر نفسه ، مقال طويل في عشر صفحات كثير الشطب والتحشية حتى لا يكاد يخلو فيه سطر من مظاهر التنقيح . واكبر الظن انه مسودّة لمقال نُشر في « الهلال » جواباً عن سؤال كانت تلك المجلة قد طرحته بشأن النهضة الشرقية وامكان التضامن بين الاقطار العربية . ومما امكننا استخلاصه ، من بين الاصلاحات والتعاليق والحواشي الكثيرة مطلع المقال وهو :

« في عتيدتي ان ما نحسبه نهضة في الاقطار العربية ليس باكثر من صدى ضئيل لما ندعوه وغن في غيبوبة بالمدنية الغربية . ذلك لان هذه النهضة المباركة (٣ لم تولّد شيئاً من عندياتها ولم يبن منها ما كان موسوماً بطابعها الخاصّ او ملوّناً بصبغتها الذاتية . والاسفنجة التي تمتصّ الماء من خارجها وتنتفخ (٤ قليلاً لا تتحول الى ينبوع ماء حيّ . اما ذاك الذي يرى في الاسفنجة المنتفخة نبعة حيّة فهو احوج الى طبيب رمدي وعناقيره منه الى صاحب هذا المقال ونظرياته » .

ثم يقول ان الشرق مقلّد للمدنية الغربية . ويزيد في جملة تدلّ على ان المقال كُتب في اثناء الحرب العمومية :

« ليس بحثنا هذا في ما اذا كانت المدنية الغربية صالحة بحدّ ذاتها او غير صالحة . فالمدنية الغربية قد وقفت في تموز سنة ١٩١٤ امام منصة القضاء السرمدي ولم تزل واقفة هناك . ولو انتدبني القضاء السرمدي لاصدار حكمه على المدنية الغربية لفعلت الساعة وكنت بما اقوله على وفاق تام مع المفكرين الغربيين انفسهم . »

ثم يحمل على الذين يدّعون الوطنية ، ويتظاهرون بالاستقلال عن الغرب في

(١ كذا في الاصل
(٢ كذا في الاصل
(٣ كتب فوقها : « مختلفة »
(٤ كتب فوقها : « وتنتفش »

بعض مظاهر الحياة ، وهم في جوهر حياتهم يقلّدون لكل ما يخرجه الغرب . يأخذون بالتقليد ويدّعون الابتكار . قال في آخر تلك الجملة :

« ولكن لو قال لي هذا السياسي والوطني الحر الذي يلعب دورين بليدَين في وقت واحد لو قال لي ولو بشيء من الفراهة السطحية : « الغرب سابق ونحن لاحقون وعلينا ان نسير وراء السائر ونتدرج مع « الدارج » .

« اذا لقلت له « حسناً تقولون . الحقوا السابق ولكن الحقوه صامتين . سيروا وراء السائر ولكن لا تدّعوا بانكم غير سائرين وتدرجوا مع « الدارج » ولكن كونوا مخلصين للدارج ولا تخفوا حاجتكم اليه وراء غربال المزعجلات السياسية . وماذا يا ترى يفهم التضامن في الامور العرضية وانتم غير متضامنين في الامور الجوهرية . ماذا تجدي الالفة في المزاعم وانتم متباينون في كل عمل من اعمالكم . . .

« هذا ما اقوله لمن يريد ان يسمع ولو بشيء من الفراهة . اما الطرشان ، اولئك الذين لا يسمعون حتى همس نفوسهم فلهم الحصة الكبرى من عطفي وشفقتي . اما نصيبهم من صوتي فمثل نصيبي من آذانهم . . . »

وفي آخر المقال صفحة وافرة التنقيح يستخلص منها ما يلي :

« وفي عقيدتي انه لو اتيح لنا الوقوف(١ على قمة من قمم التجرّد مستعرضين المدنيات الثانية . وما احدثته من النهضات والوثبات لرأينا ان نهضات (الشعوب) الامم ليست بما اوجدته لحفظها الخاصة بل بما تركته ارثاً(٢ للامم التي تأتي بعدها . وعلمنا ان زبدة المهد الذي كان فجره في بابل وساءه (كذا) في نيويورك هي في الحقائق الكلية الشاملة التي اكتشفتها نبوغ الامم واثبتها . وفي الجمال المطلق الذي بان له في الحياة فالبسه قالباً خالداً واوقفه برجاً ذهبياً (٣ امام وجه الشمس . فان كنا متدينين قلنا . . . (٤ وان كان بنا ميل للآداب والفنون . وما الآداب والفنون من الدين الّا بمثابة الشرح من المتن رأينا رموز تلك النهضات العلوية ظاهرة بجلاء في الثور المجنّح الكلداني وفي ابي الاهوال والهرم الاكبر ، في مزامير داود وسفر ايوب ، في الحكايات الهندية والفواجع اليونانية ، في ابيات علي ونظريات الغزالي وفتحات القارض وغضبات (؟) المعري . وفي رؤيا (٥ دانت وتماثيل ميكل انجلو ورسوم دافنشي وروايات شكسبير وانتام يتوقن . »

---

١) كتب فوقها : « لفرد مثا ان يقف »

٢) كتب تحتها : « لا يزول »

٣) كتب اولا : « قوالب خالدة » « وابراجاً ذهبية » ثم اصلحها

٤) كذا في الاصل

٥) تحت رؤيا كتب : « قصيدة »

ومما يجدر بالذكر ، في هذا الدفتر ، صفحتان وافرتا التنقيح ، شأنَ سائر الكتابات العربية ، تدوران حول « العقل والروح » في بحث لا يظهر تامًا ، يستخلص منهما :

« ان العقول قشور الارواح فمن (١ يعيش بعقله دون روحه لا ولن يعرف من الحياة سوى سطحياتها . ومن يحسب الروح ظلًا شيئًا ومآتي الروح سرابًا (٢ كان وجوده بعض الوجود (٣ وكان وجدانه غلافًا للوجدان . ويقولون لي ان المدنية الغربية قد قامت على دعائم العقل والعقل شيء عملي اجرائي ايجابي (٤ وهذا ما جعل الغرب غنيًا قويًا غالبًا

ويقولون لي فانظر الى آثار العقول ومظاهرها من قطارات مسرعة وبواخر ماخرة وطيارات محلقة وآلات دائرة تقوم الواحدة منها مقام الف رجل وتنجز بساعة ما لا تنجزه الايدي البشرية بسبعة اعوام

ويقولون لي الا ترى انهم بعقولهم قد سادوا وسادوا وقسموا الارض كما شاءوا (كذا) وحكموا سكان الارض كما ارادوا

يقولون لي مثل هذه الاقوال باسطين البراهين المزركشة على سلطة العقل وميزته ثم يختمون حديثهم بسؤالهم « وماذا يا ترى انتجت (كذا) ذاك الذي تدعوه روحًا؟ فان كنت تحسب الغرب عقلي الطوية والشرق روحي المذهب فانظر اذن الى هذا وتمثل ثم التفت الى ذاك واندب . »

يطلبون اليَّ ان انظر الى عقل الغرب العامل لارتمش (٥ حسدًا ثم الى روح الشرق لاندب . ذلك لانهم يتوهمون ان الغرب بدون روح وان الشرق بدون عقل . ومن هذا الوهم يسخرون (؟) ويستنتجون الاسباب مما يدعونه تفهقرًا في الشرق (٦ وتقدمًا في الغرب (٧

اما نحن ، نحن الموحدون ، نحن السكارى بخمرة وحدة الحياة وفرديتها ، نحن لا نجزئ الارض الى شرق وغرب او الى قبلة وشمال . ولا نفصل (٨ بين عنصر من الناس وعنصر آخر .

---

١) كتب اولًا : « الذي » ثم اصلحها فوقها « بمن »
٢) في الجملة الاصلية : « نفحة في الفضاء » ثم اصلحها « بالسراب »
٣) في التعبير الاصلي : « نصف وجود »
٤) كتب اولًا : « عملي » ثم وضع فوقها : « اجرائي » واردفها بلفظة « ايجابي »
٥) كتب تحتها اولًا : « لاغتبط »
٦) كتب فوقها : « الشرقيين »
٧) زاد فوقها : « بين »
٨) كتب اولًا : « ولا نقسم البشرية » ثم اصلحها

نحن نرى الطبيعة مظهرًا واحدًا من مظاهر الله الاوحد . نحن نرى الارض كتلة واحدة والبشرية عنصرًا واحدًا واعمال البشر عملًا واحدًا

نحن لا نفصل بين شيء وشيء ، حتى ولا بين العقل وهو الشعور والروح وهو اللباب . ولكننا نميز بين هذا وذاك فنقول العقل سطحي وقتي وهو لازم (١ . اما الروح فباطني ابدي وهو الزم .

غير اننا في كليتنا نتساهل بعض الاحايين مع المجزئين (٢ ونقول نعم هناك قسم في هذه الفكرة يعرف اصطلاحًا بالشرق وهناك قسم آخر يدعى تمييزًا بالغرب . »

وفي آخر هذا الدفتر ، او في اوله من جهة اليمين ، مسودة رسالة قد تكون موجهة الى ميّ كما يُستدلّ من النص . والمعروف ان جبران كان يكتب مسوداتٍ لرسائله . قال :

« ها قد رجعت من لبنان فانا بالطبع اهنئك بذهابك الى لبنان ولا ادري ما اذا كان عليّ ان اهنئك برجوعك سالمة الى مصر

لبنان . لبنان . لبنان . قولي لي ماذا وجدت في لبنان ؟ لو بعثت اليك بالرسائل التي تجيئني من ابسط اللبنانيين ومن اكثرهم (تركيبًا) (٣ لما فكرت قط – لو كنت انتِ انا – (هلّا خطرت لي هذا الافتراض) – بالذهاب الى لبنان او الى اية قرنة من قراني الشرق . »

٤ دفتر كبير اكثره ابيض . يبدأ من اليسار بمقاطع كثيرة من « آلهة الارض » باللغة الانكليزية . يليها محاولات تصويرية منها صورة امرأة تحضن طفلًا وترضعه . وقد رسمت بالرصاص على شكل دوائر متتابعة متداخلة بعضها في بعض فأتت على كثير من الغموض والوضوح معًا . ثم رسم حية برأس امرأة جميلة . ومحاولات كتابة اسم « بربارة » بالعربية نظن ان الست بربارة هي التي قامت بها وقد علّمها جبران ان تكتب اسمها بلغته . ولكنها نسيت ، في احدى هذه المحاولات ، الراء الثانية فاتى الاسم هكذا : « برباة »

---

١) زاد فوقها : لفظة : « ولكنه » ولا رابط لها

٢) كتب فوقها : « الجزئيين »

٣) كذا في الاصل

واول الدفتر من ناحية اليمين حافل بكثير من عناوين الاشخاص بالانكليزية . ثم هذا المقطع :

« اريد ان اموت قبل من احب كيلا اجن اذا مات قبلي
واريد من يحبني ان يموت قبلي كيلا يحزن لموتي قبله . »

وتحته ، وهي مسودّة قطعة معروفة بعنوان « الارض » :

« تنبثق الارض من الارض رغماً (١
« ثم تسير الارض فوق الارض تيهاً وكبراً
« وتنثى (٢ الارض من (٣ الارض القصور والبروج والمياكل
وترسم الارض على الارض الاساطير والتعاليم والشرائع
ثم تقلّ الارض اهمال الارض فتحوك (٤ من هالات الارض الاحلام والاشباح
ثم يراود نعاس الارض اجفان الارض فتنام نوماً هادئاً عميقاً ابدياً
ثم تنادي الارض قائلة للارض : انا البدء وانا النهاية (٥ وكل ما بي فيّ وسابقي ظافرة (٦ رحماً وقبراً حتى تضمحل الكواكب وتتحوّل الشمس الى رماد . »

وفي صفحة ثانية مسودّة قطعة كاملة ننشرها في ما يلي :

« تسير اليوم مستندة على ساعده – وبالأمس كانت على ساعدي
وتجلس بجانبه في ظلال الغصون وبالامس كانت بجانبي
وتشرب الراح من كأسه وبالامس كانت ترشفها من كأسي
وترمقه بعين ملؤها الحب وبالامس كانت ترمقني

قلت لصديقي : الا فانظرها متكئة على ساعده وبالامس كانت على ساعدي . فقال : وغداً على ساعدي .

قلت : تأملها جالسة الى جانبه وبالامس كانت الى جانبي . فقال . وغداً الى جانبي .

قلت تبصرها تشرب الراح من كأسه وبالامس كانت ترشفها من كأسي فقال وغداً من كأسي .

---

١) كتب فوقها : « كرهاً وقسراً »
٢) فوقها : « وتتيم »
٣) فوقها : « على »
٤) كتب تحتها : « فتبدع »
٥) كتب فوقها : « انا الرحم وانا القبر »
٦) كتب فوقها : « قوية هائلة »

قلت انظرها ترمقه بعين ملؤها الحب وبالامس كانت ترمقني . فقال وغدًا ترمقني
قلت اسمعها تمس اغاني الغرام في اذنه فقال وغدًا في اذني
قلت انظر فهي تعانقه وقد كانت بالامس تعانقني . فقال وغدًا تعانقني
قلت انظر فهي تقبل ثغره وقد كانت بالامس تقبل ثغري . قال وغدًا ثغري
قلت ما اغربها امرأة
قال : هي كالحياة يملكها (؟) كل الناس (١ وكالموت تتغلب على كل البشر وكالارض (٢ تضم كل البشر . »

ثم هذه القطعة التامّة الدالة على ميل جبران الى التوحيد، او الوحدة الرامية الى الحلولية ، التي تكلم عنها في قطعة سابقة (راجع ص٢٥٣) :

تجزئة سطح الارض شغل الباسة
وتجزئة النفس شغل الفلاسفة
وتجزئة القلب شغل الشعراء
وتجزئة السماء شغل الكهّان

ولقد وجدتني غريباً بطبعي واحلامي عن هؤلاء المشتغلين بالتجزئة والتقسيم منصرفًا الى الوحدة النفسية والعقلية والدنيوية والسماوية . »

يلي ذلك شذرات وحكم :

« العلم طريق من سار عليها لا يستطيع الوقوف بوعين متتابعين في مكان واحد .
لم تحكم امة امةً اخرى الّا والفت الفتن بين عشائرها .
لو لم يكن في الارض غير شجرة واحدة لعبدها الناس .
ليس امرّ من فقر يأتي بعد الغنى . »

« نصرف ام اجسادنا بعقولنا فلو (صرفنا) (٢ عقولنا عن اجسادنا لما شعرنا بالالم (العقل) (٣ يتموج مثل كل قوة غير محدودة . قد تستشرف سبيلًا الى ارسال موجات (عقلية) (٣ الى مكان بعيد . »

ولعل اهم ما في هذا الدفتر مسوّدات « المواكب » ، او اكثر المواكب . فان في درسها فوائد جمة تطلعنا على تطوّر فكر جبران ، واضطراب القوالب في التعبير عنه ، حتى استقرارها نهائياً على الشكل المطبوع ، وليس بالشكل

١) كتب فوقها : « البشر »
٢) الفلان في الاصل .
٣) الفلان في الاصل .

الأمثل . وهذه ابيات نشير الى طرق اصلاحها في المسودّة ، وقد وضع الكلمات المصلحة فوق الاصلية . ثم نقابل بينها وبين النصّ المنشور بالطبع :

نبدأ بالمقطع المعروف « بالعلم » . جاء في الدفتر :

والعلم في الناس سبل بان اولها — اما اواخرها فالدهر والقدرُ

الرام
واكثر العلم مثل الجهل ايسره — يرضي ولكن في ادمانه الخطرُ

وافضل حلم
وانبل العلم وحي لو ابحت به — وسرت ما بين ابناء الكرى سخروا

فان رأيت اخا الاحلام منفردًا — عن قومه وهو منبوذ ومحتقر

النبي الند
فهو الكليم وبرد الغاب يجبيه — عن امة برداء الامس تأتزرُ

لام الناس او عذروا
وهو المجاهد غاب وهو الابي جاء الناس ام هجروا حضروا

وهو الغريب عن الدنيا وساكنها — وهو البعيد وان ابدى ملاينة

الشديد
وهو البعيد وان ابدى ملاينة — وهو البعيد

اما في « المواكب » المطبوعة فقد جاء هذا المقطع :

والعلم في الناس سبل بان اولها — اما اواخرها فالدهر والقدرُ
وافضل العلم حلم ان ظفرت به — وسرت ما بين ابناء الكرى سخروا
فان رأيت اخا الاحلام منفردًا — عن قومه وهو منبوذٌ ومحتقر
فهو النبي وبرد الغاب يجبيه — عن امة برداء الامس تأتزرُ
وهو الغريب عن الدنيا وساكنها — وهو المجاهر لام الناس او عذروا
وهو الشديد وان ابدى ملاينة — وهو البعيد تدانى الناس ام هجروا

اما البيت الثاني في المخطوطة : « واكثر العلم . . . » فلم يظهر في هذا المقطع من « المواكب » انما نقله المؤلف الى مقطع الحبّ كما سيلي .

وهذا مقطع « العدل » :

ويستضحك الاموات
والعدل في الارض يبكي الجن لو سمعوا — به ويضحك اهل النار لو نظروا

فالسجن والموت للجانين
فالموت للسجرمين ان صغروا — والمجد والفخر والاثراء ان كبروا

منبوذ (؟) ومستهن الخطر /
فسارق الزهر مذموم ومحتقر وسارق الحقل يدعى السيد الوقر
وقاتل الجسم مقتول (بفعلته) وقاتل الروح لا تدري به البشر

وهذا هو في « المواكب » المطبوعة :

والعدل في الارض يبكي الجنّ لو سمعوا به ويستضحك الاموات لو نظروا
فالسجن والموت للجانين ان صغروا والمجد والفخر والاثراء ان كبروا
فسارق الزهر مذموم ومحتقر وسارق الحقل يدعى الباسل الخطرُ (١
وقاتل الجسم مقتول بفعلته وقاتل الروح لا تدري به البشر

وهذا مقطع « الحب » :

والحب في الناس اشكال واكثرها كالعشب في القيظ لا زهر ولا ثمر
والحب ان قادت الاجسام موكبه الى الرغائب والاغراض ينتحرُ
كانه ملك في الاسر معتقل يأبى الحياة واعداؤه له ظفروا
والطير لا يبني عشّاً وهو في قفص كلّا ولا

اما في « المواكب » المطبوعة فجاء على هذا الشكل :

والحبّ في الناس اشكال واكثرها كالعشب في الحقل لا زهر ولا ثمر
واكثر الحب مثل الراح ابره يرضي واكثره للمدمن الخطرُ (٢
والحب ان قادت الاجسام موكبه الى فراش من الاغراض ينتحر
كأنه ملك في الاسر معتقل يأبى الحياة واعوانًا له غدروا

اما اجوبة « الفتى » المعروفة في « المواكب » فكأنه كان يؤلفها معاً . فهي، في الدفتر، كلّها متتابعة، بعد ان تتابعت مقاطع « الشيخ » قبلها .

وفي الدفتر المذكور مسوّدة قصيدة لا عنوان لها ننشرها كما هي مع التعاليق التي وضعها الشاعر على بعض الالفاظ بقصد ابدالها :

في هدوء الليل يأتي مبطئًا وهو مثل الليل هولًا قد بدا
يأتي منفردًا كان الارض لم ترى الاّه عظيماً تحتضن الاّه فردًا سيدا
ويدوس الشرب مرفوعًا كما تلمس (الاطلال) اطراف السحاب

١) وفي بعض الطبعات الظاهرة، بعد وفاة جبران، أُصلح هذا الخطأ النحوي فجاء : « وسارق الحقل لهو الباسل الخطرُ . »
٢) هو البيت المنقول من مقطع الحلم .

فكان الجسم في اثوابه من شعاع ورياح وضباب

قلت يا طيفاً يبق الليل في سيره هل انت جنّ ام بشر
قال (كلمة غير مقروءة) وفي الفاظه رنة الهزء انا كل القدر

معترضاً
قلت لا يا طيف قدمات القدر يوم ضمتني ذراع القابله
قال مبتسماً انا الحب الذي لا ينال العيش الا ناتله

قلت لا فالحب زهر لا يبشر بعد ان تذبل ازهار الربيع

ضجة البحر
قال مكتئباً وفي سحنته لهجة القبر انا الموت المريع

قلت لا فالموت صبح ان اتى ايقظ النائم من غفلته
قال منتخراً انا المجد فمن لم ينلني مات في علته

وينتهي القسم العربي من الدفتر بعملية حسابيّة على الثقل النوعي غايتها معرفة كمية الفضة والذهب في خاتم مركب من المعدنين .

هذا افضل ما في الدفاتر المذكورة من معلومات ادبية وفنيّة افادتنا الكثير عن تطوّر فكرة الشاعر المصوّر . وهناك افضل منها معلومات حيّة شخصيّة كانت تفيضها علينا الستّ بربارة دون انقطاع ، وفي حديثها نبرة الاعجاب والاحترام . فرأينا ان ننقلها ، مصادر ووثائق للدروس الجبرانية ؛ ونعرضها على طريقة موضوعية ، تاركين استخراج الأحكام لمن يُعنى بدرس جبران درساً شاملاً في المستقبل :

عاش جبران ، في نيويورك ، مدة ٢٢ سنة وحيداً دون خادم . سكن اولاً محترفاً ضيقاً يواقق دخله . حتى اذا مرّ عليه سنتان او ثلاث انتقل ، في البناية نفسها ، الى المحترف الواسع الذي ظلّ فيه حتى آخر حياته ، في ٥١ وست الشارع العاشر . وكان يكتسب من تصويره . وقد عرف امره فاقبل عليه الكثيرون ، حتى اصبح معدّل دخله من الصورة الواحدة ٢٥ دولاراً . ومن الذين صوّرهم فشهر بهم موريس مترلنك ، وهنري دي روشمون ، في باريس ،

وعبّاس عبد البهاء في نيويورك .

وظلّ يصوّر بالزيت حتى السنة ١٩١٥ . فارتفعت اسعار موادّ التصوير بما يفوق مقدوره . فترك الزيت الى الفحم والرصاص ، وبقي عليهما حتى وفاته .

اما الكتابة فكان يلهو بها اول الأمر ، ولا يأمل منها ربحاً ، حتى نشر « المجنون » بالانكليزية ، سنة ١٩١٨ . فكان فاتحة الشهرة ومدخل الثروة . ولم يلبث جبران المصوّر ان تضاءل امام جبران الشاعر المفكر في نظر الاميركيين ، الّا ذوي الاختصاص بالفن التصويري فظلّوا يقدرون الفنّان المصوّر على احترامهم المؤلف النابغة .

واخذت الست بربارة تفيض في احترام الاميركيين لآثاره الكتابية ، من المجنون ، الى يسوع ابن الانسان ، الى آلهة الارض ، مما يعرفه الجمهور ، متوقفة ، خاصّة لدى « النبي » الذي كاد يحتكر اعجابها اذ كان سبب اتصالها بالمؤلف . فاطلعتنا على معلومات بشأنه تشير الى اخلاص جبران لفنه اخلاصاً نادرًا ، كما تدلّ على احترامه لأمّه وتقديره مواهبها . فرأينا في نقلها كل الفائدة :

كانت امّ جبران من النساء الذكيّات العاقلات . من اولئك اللبنانيات ذوات الشخصية القويّة ، اللواتي يؤثّرن في اولادهنّ اثرًا عميقاً يجاوز اثر الآباء ، ويرافق الابناء في جميع مظاهر حياتهم . كانت عارفةً باللغة الانكليزية ، وقد نالت ، في اثناء اقامتها باميركة ، كثيرًا من تلك الثقافة الاختبارية التي ينضجها التوازن العقلي على مهل . فغدت تفهم ابنها حقّ الفهم ، وتُعجب به ، لا اعجاب الام « بغزالها » ، بل اعجابها بفتى نابغ يخرج عن مستوى الجمهور من البشر . تعرف انه مدعوّ لتمثيل دور في ادب بلاده وفنّها ، ولكنها تشعر ، على رغم محبة الامّ ، انه لم ينضج بعد للقيام بهذا التمثيل . وكان جبران يعرف منها هذا الحبّ العطوف ، ويشعر بهذا البصر البعيد ، فيعرض عليها آثاره الاولى ، ويتقيّد باحكامها وآرائها ، كما ظلّ يختلج احتراماً لذكراها ويردّد اقوالها طول عمره ، بعد ان ودعته الوداع الاخير سنة ١٩٠٣ ، وبعيدها قبل وفاته للست

برباره . حتى جمعت الكاتبة الاميركية من اقوال الامّ الواحلة واحاديثها كتيباً صغيراً استشره بالطبع مع ترجمة جبران .

الف جبران « النبي » اولاً باللغة العربية . فعرضه على امه فخوراً . وبعد ان سمعته الامّ منتبهة ، لم يمنعها اعجابها القول : « انه كتاب عظيم ولكنه سابق لأوانه . فكرته رائعة عميقة ، ولكن تعبيرك عن هذه الفكرة لا يزال بحاجة الى الاختمار ، يا جبران . فارى ان لا تنشره اليوم . » فتركه جبران خمس سنوات ، توفيت في خلالها والدته . وعاد الى « النبي » يكتبه من جديد بالعربية ايضاً . ولكن لم يكد ينتهي منه حتى تمثل حكم امه ، ولم يرَ انه بلغ النضج الكافي . فمزّق الكتاب دون ان يقرأه كاملاً . ثم كتبه بالعربية للمرة الثالثة وتركه يختمر . ومرّت عشر سنوات . ولما عاد اليه يقرأه من جديد لم يرضَ عنه فمزّقه . وكتبه رأساً بالانكليزية ، وقد تجاوز الخامسة والثلاثين ، فاتّسع افق تفكيره ، واستقرّ ذوقه الادبي . فكان ذاك « النبي » الذي تجاوز الاعجاب به جمهور الادباء الى اكابر رجال الدين والدنيا فرُتّلت منه المقاطع في الهياكل الانجيلية ، وقام بتنغيم اناشيده حاخامو اليهود في كُنُسهم ، وقال عنه الرئيس ولسون : « انه اعظم كتاب بعد الانجيل . » وكان من نصيبه ان نقل الى اكثر من عشر لغات منها العربية . على ان جبران لم يكن راضياً عن هذه الترجمة العربية ، ولم يكن يخفي عدم رضاه هذا . ولكنه كان قد مزّق الاصل العربي الذي وضعه هو لهذا الكتاب ، ولم يجد مجالاً لوضعه من جديد بلغة بني قومه .

وعلى ذكر كتاب « النبي » وما تضمّنه من آراء دينية ، وموقف رجال الدين منه ، انتقلنا الى الكلام عن « يسوع ابن الانسان » وعن آراء جبران في الدين ورجاله . فاخذت الست برباره في حديث شائق كانت تقطعه نبرات اعجابها بالشاطئ اللبناني ، والسيارة تنهب بنا سهول جبيل والبترون ، وتلتفّ في مضايق راس الشقمة :

كان جبران مسيحياً كل المسيحي في الكثير من معتقداته وتصرّفاته ، ولاسيّما في بغضه للرياء والمرائين ، اولئك الذين حاربهم المسيح طول حياته ، اذ

كانوا يتمثلون له بأشخاص الفريسيين ؛ والذين اراد جبران ان يحاربهم كذلك ، وقد تمثلوا له برجال الاكليروس . على انه كان يستثني قليلًا من افراد الاكليروس عرفهم بصدق تقواهم واخلاص نيّاتهم ، فكان يستقبلهم ويعطف على مشاريعهم الخيرية . وقد عرفت الست برباره من هؤلاء المستثنَين الاب الدويهي ، نزيل بوسطن . وكان جبران كلما زار اخته مريانا في بوسطن ، يجتمع بالاب الدويهي فيحييان الليل في الاحاديث . وكثيرًا ما كان يهبط الاب الدويهي نيويورك ، فيزور جبران في محترفه ويتحادثان الى ساعة متأخرة من الليل كذلك . وللراهبات في احترام جبران مركز خاصّ . كان لا يفوه بكلمة في انتقادهنّ ، ولا يجيز لأحد ان يتعرّض لهنّ بحضرته . وكنّ يعرفن منه هذا العطف ، فلا يتأخرن عن طرق باب محترفه ، كلما كنّ بحاجة الى اسعاف . ولم يحدث له ان ردّ احداهنّ خائبة . وكان له لذّة خاصة في عمل الخير على شكل تخفيف مصاعب الحياة عن المتعبين . تشهد بذلك اخته مريانا التي طالما كلفها ان توزّع الاحسان من قبله على فقراء اللبنانيين في بوسطن ، كما كان يتولّى الواجب نفسه بواسطة الراهبات في نيويورك . وتشهد بذلك وصيته ، وقد ترك فيها القسم الأكبر من منتجات كتبه في سبيل فقراء مسقط رأسه بشرّي .

وكما كان جبران يكره الرياء في الدين كان يكرهه في المجتمع اشد الكره ، ولاسيما في السياسة . ولهذا تجنّب الدخول في جميع «الجمعيات» و« الأندية» و « المحافل» وما اليها من المجتمعات التي كان ينشئها المتاجرون بالمذاهب السياسية من اللبنانيين والسوريين ، وهم كثيرون في جميع انحاء المهاجر . روت لنا الست برباره حادثة تدلّ على كره جبران للسياسة ، كما تدلّ على قوته البدنية ولاسيما في يديه . قالت :

جاءه في احدى الليالي سوري ذو اسم في بني قومه . واخذ يداوره في الحديث حتى اطال واضجر ، قاصدًا ادخاله في مشروع سياسي «رسخ» — والكلمة للست برباره — فما كان من جبران ، وقد تأثر حتى تشنّجت اعصابه ، الّا ان صرفه بلياقة ، ثم رجع مضطرباً نحو مكتبه ، وعليه جدول التلفون ، وهو في

نيويورك ، مجلّد ضخم . فتناوله ، وبلمحة بصر ، مزّقه بين يديه من الدفة الى الدفة ، متمنياً لو امكنه ان يستبدل بـه رقبة ذاك السياسي الوسخ . وبقي الجدول قطعتين في محفوظاته مدة طويلة شاهداً على قوّته ، وعلى ما نواه لرقبة ذاك السياسي ....

اما الكنائس فلا تذكر الست بزباره ان جبران دخلها قبل وفاته . بيد انه ذهب مرّتين الى الكنيسة الانجيلية الاسقفية مكلّفاً من قبل قسّيسها القسّ الإرشاد الاسبوعي . ولا يستغرب السامع موقف جبران يلقي المواعظ في الهيكل . فان صاحب « النبي » ، في آخر ايامه ، كاد يلتحق ببطله فيتوحّدان في نظر الكثيرين من معجبي الاميركان . وهو ، في نيويورك المادية ، يمثّل برجاً من ابراج الروح . وكثيراً ما اتجه نحوه مريدو الروحانيات بل زعماؤها يأخذون رأيه ، ويهتدون بهديه ، كما جرى لكريشنا مورتي .

— ومن هو كريشنا مورتي ؟

— كريشنا مورتي شاب روحاني ثقّفته سيدة اميركية اسمها آني بيسنت . واعتكف على التأملات النفسية ، حتى نضجت فكرته واختمر اسلوبه ، فقام يخطب في المجتمعات ويدعو الناس الى التقوى والصلاح والفضيلة . وما هي مدة حتى سار ذكره في انحاء اميركة . فكثر تبّاعه ، والّف جمعية لتبشير المتردد بالدين المسيحي . وكان لا بدّ من ان يختلف بعض مريديه في شخصيته الغريبة . فمنهم من قال انه رسول بعثه المسيح الى هذا العالم ليخفّف من شروره وويلاته ، ومنهم من زعم انه المسيح بالذات . وتجاوز بعضهم الى الرغبة في التعبّد له . فاضطرب كريشنا من موقف تبّاعه ، وطفق يشرح لهم انه رجل عاديّ ألهبته محبة المسيح فاراد خدمته . فلم يُفلح . اخيراً كاد يملكه اليأس . فلجأ الى جبران يستشيره ، وعرض عليه مخطوطة كتاب في الروحانيات .

قرأ جبران الكتاب ، مع الست بزباره ، في ليلة واحدة . وعندما عاد كريشنا ارجع اليه مخطوطته مع الثناء الحقّ . ونصح له ان يتابع خطته ، ولا يهتم بما يقول الناس عنه حسناً كان او سيئاً .

امّا كريشنا فحاول من جديد افهام اتباعه غايته الحقيقية. ولما لم يُفلح للمرة الثانية ، حلّ الجمعية ، وسافر وحده الى الهند .

— وجبران كيف كانت وفاته ؟ وهل مات كاثوليكياً ؟

كان جبران يشعر بتعب في قلبه ، ومعدته ، وامعائه خاصة ، مع انحطاط شامل في سائر جسمه . وليس من سرطان ولا ايّ مرض آخر بشهادة تقارير الاطباء في المستشفى . انما الشغل المتواصل انهك قواه ، واضرّ به عدم الانتظام في حياته . ذلك انه كان يُهمل الجسد اهمالاً تاماً ، ويقول : لا قيمة الّا للروح ، ولا يستحق هذا الغلاف المادي شيئاً من الاهتمام . فلم يرَ طبيباً ولم يشأ ان يتناول دواء . حتى اشتدّت به الادواء ، فوقع مغشيّاً عليه في احدى الليالي بينما كان يشتغل في مخترفه ، وليس عنده احد . على ان الجيران عرفوا بالأمر فأسرعوا وانعشوه بما حضرهم . ولما لم يعرفوا عنوان الست بربارة ، تلفنوا الى سيدة تعرفها . وما هي دقائق حتى جاءت الست بربارة وبعض اصدقاء الشاعر . وكان قد عاد اليه رشده . فحاولوا اقناعه بالذهاب الى المستشفى فأبى . ولم يفلحوا الّا صباح اليوم الثاني . فنقلوه الى مستشفى كاثوليكي اقام فيه ساعات معدودة .

ورأت الست بربارة ان من واجبها اطلاع كبار اللبنانيين على ان جبران في المستشفى فتلفنت الى الاستاذ سلوم مكرزل وكلفته القيام بما يراه موافقاً . ولم يلبث السيد مكرزل ان جاء المستشفى يصحبه كاهن ماروني . وكان جبران قد دخل في غيبوبة الموت ، ولكنه كان لا يزال في وعيه الداخلي ، كما قال الاطباء . فاقبل الكاهن يخاطبه بالعربية ، ويسأله اسئلة لم تتفق منها محدّثتنا الّا لهجتها الاستفهامية وكلمة : يا جبران . ولمّا لم يفز الكاهن بجواب ، هزّ المحتضر بعنف اثار احتجاج الست بربارة ، فلم تتمالك الخروج عن لطفها المعتاد .

وبعد قليل جاء الطبيب واعلن الوفاة .

وهنا افاضت الست بربارة ، تقطعها نبرات الأسف واللوعة ، في وصف الجنازة الفخمة في بوسطن ، حيث كانت الجماهير تزدحم خارج الكنيسة على مسافات بعيدة ، حتى انها اوقفت سير المركبات مدة عشرين دقيقة . وكان

المزدحمون ، عند مرور النعش ، يخرون راكعين . وعندما عرض الجثمان ، مرّ جميع الحاضرين من امامه يتأسفون مودّعين الراحل بعبارات مؤثرة لم تفهم منها تلك الرفيقة الامينة ، الّا كلمة : « حبيبي جبران » !

ــ وماري هسكل ؟ تلك التي كثيراً ما يُلفظ اسمها في الكلام عن جبران ؟

ــ ماري هسكل سيدة فاضلة ، احسنت الى جبران في نشأته فمكّنته من متابعة ثقافته الفنيّة والادبية . وليس من صحة لما يُقال من انها كانت ترغب في الزواج منه . بل ان جبران نفسه هو الذي عرض عليها هذه الفكرة . ذلك ان الفقيد ، عندما اصاب نصيبه من الغنى ، اراد ان يكافئ المحسنة اليه ، وشاء ان يترك لها ثروته . فعرض عليها الزواج في هذه الغاية ، ليس غير . على انها رفضت العرض بلطف ، وقد سُرّت بفكرة الاعتراف بالجميل . فسُرّ جبران بالرفض كذلك ، لأن اقتراحه لم تملِه العاطفة الحبيّة . وبعد ذلك تزوّجت السيدة هسكل وعاشت مدة مع زوجها . وقد توفي منذ اربع سنوات . اما هي فلا تزال متمتعة بالصحة في سِلفانيا من مقاطعة جيورجية ، كما لا تزال محافظة على ذكرى تلك الصداقة المتينة التي كانت تربطها بجبران . واني اعرف الكثيرات من صديقات جبران يحفظن ذكراه باحترام قد لا يعرفه الكثير من اصدقائه .

وارادت الست برباره ان تلبي داعي الفضول قبل ان تجسر بالسؤال فتابعت : وافيدكم ان جبران كان في جميع علاقاته روحانياً سامياً يترفع عن الشهوات البشرية . كان حبه من ذاك الحبّ الصوفي الشديد الهيام المغذّى بالفنّ والجمال المتفلّتين من القيود الارضية . هو روحاني في نظراته ، في احاديثه ، في علاقاته جميعها . يذيب نفسه في هذه الزفرات نحو العلاء ، كما يذيب جسده في الشغل المتواصل والمعيشة الزاهدة المتقشفة . لا اعرف له علاقة غرامية واحدة . ولم يطلعني قط ــ وقد اطلعني على الكثير من شؤونه ! ــ على انه احبّ حبّ شهوة في حياته ! انما اطلعني على حادثة تأثّر منها مدة طويلة ارويها لكم

دون تعليق :

دعي مرّة وهو في ابهة مجده الادبي بعد ظهور « النبي » الى حفلة شاي في دار احد كبار اللبنانيين. وكان هناك كثير من مشاهير الاميركيين والاميركيات. لان جبران كان ذا علاقات حسنة مع كبار القوم في المهجر ، من أسرة الرئيس روزفلت الى مثيلاتها من سراة المجتمع. وكان بين المدعوين سيدة اميركية واسعة الثقافة اعجبت جبران بحديثها المشبع بدقة الاطلاع ، وبذوقها الفني الصحيح . فانصرف اليها على طريقة لفت انظار المدعوين . وعندما ودّعها شدَّ على يدها علامةَ الاعجاب. امّا هي فلم يوافق حسنُ ظنها حسنَ نيّته . وبعد يومين تلقّى منها دعوة الى حفلة شاي . فسُر وتهيأ للموعد المذكور . وشدّ ما كانت دهشته المؤلمة عندما وصل الى البيت فلم يجد من المدعوين سواه . وكان اول ما تمتمت شفتاه في اضطرابه :

ــ ألم يصل احد من المدعوين بعد ؟

ــ لا مدعوين غيرك . فنحن وحدنا .

عند ذاك ، تلمّس قوى نفسه جميعها ، وقام معتذرًا ، مودّعاً ، متلعثماً ، مضطرباً . وكان آخر عهده بتلك السيدة التي لم يشأ ان يذكر اسمها حتى لي .

وبعد وفاة الفقيد ، اتاني ميخائيل نعيمه ــ واضطربت الست بربارة ممتعضة ــ فطلب مني ان اطلعه على حياة جبران السرّية . فابتسمت ، على رغم انفعالي الداخلي ، وقلت :

ــ لم يكن لجبران حياتان . عاش جبران ومات في وضح النهار . فانظر واحكم .

ولمّا اعاد الكرة واخذ يداورني كي اطلعه على شيء مما يريد ان ينسبه الى جبران ، قلت له :

ــ انا رفيقته ومعاونته مدة سبع سنوات لا اعرف له الّا حياة الشغل الدائم ، والجهاد المضني ، والمعيشة الروحانية . فان لم تعجبك هذه الحياة ، فاطلب غيري .

فذهب ولا اعرف ماذا نشر في كتابه . غير ان اللبنانيين والسوريين المهاجرين ، اظهروا سخطهم على هذا الكتاب عندما اطلعوا عليه في نيويورك

كانت برباره يونغ امينةً على ذكرى جبران ، مخلصة ، له في حياته ومماته . رافقته في عمله ، ورافقته في مرضه ، ورافقته في جنازته المحمولة الى بوسطن ، كما رافقته في ترتيب تركته الفنية وطبع مخلّفاته الادبية . فلا اقل من ان ترافقها ذكرى زيارتها قبر جبران ، في عرض الاوقيانوس الفسيح حيث تجابه الطوارئ والمفاجآت في هذه الأيام العصيبة ، راجعةً بعد حجها القصير ، الى مهبط وحي جبران !